الوطنية في شعر الشابيّ :

وطنية الشابيّ وطنية صادقة لا تخدم أغراضاً طبقية ، ولا تسير في ركاب حزب ولا توحيها مناسبة هزيلة ضئيلة لا تخرج في سطحيتها وبرودها عن تعليق الصحف .

وطنية متمردة ، وطنية الشاعر الذي وعى رسالته ، فأحسّ في أعماقه أنَّه مسؤول عن تبصير شعبه بمعاني الحياة الحرة الكريمة ، مسؤولية الشاعر الذي احترم ذاته وكيانه واستقلَّ بهما عن الآخرين ، فأحبَّ لشعبه أن يحقق ذلك في شخصية متميزة تتجه إلى المساهمة الحضارية الخالقة .

ويقول التليسيّ في كتابه **"الشابي وجبران"** :

" وكأنما كان يرى – هذا الشاعر الثائر – أنْ لا سبيل إلى طرد المستعمر وقهر الغاصبين إلا بخلق الشخصية القومية الطامحة" . [١]

---

[١] الشابي وجبران ص ٧٨ .

فالشخصية القومية الطامحة لا تحلق إلا فوق الرومانسيين الحالمين بغير الواقع ، فللشابي قصيدة قالها قبل موته بشهرين بعنوان **"الدنيا الميتة"** : [١]

إنِّي أَرَى فَأَرَى جُموعاً جَمَّــةً
لكنَّهــا تَحْيَــا بِــلَا ألبــابِ
يُدوّي حواليهـا الزمـانُ كأنَّمـا
يُدوّي حوالي جَندلٍ وتُــرابِ
لُعبٌ تحرِّكُهَا المَطَامِعُ واللُّهَى
وصغائـرُ الأحقــادِ والآرابِ
الشاعــرُ المَوهُوبُ يُهرِقُ فنَّهُ
هَدْراً على الأقدامِ والأعتابِ
الويــلُ للحسَّــاسِ في دُنيـاهُمُ
مَاذَا يلاقي مِـنْ أَسَىً وعَذابِ

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٤٨٠ .

عنوان القصيدة يفصح عن مضمونها حيث تتجلى نقمة الشابي وحساسيته المفرطة وشعوره بأنَّه يعيش في عالم غريب بين الغرباء والموتى ، فيحاول أن يستثير همة الشعب فيقول في قصيدته "إلى الشعب" : [١]

أينَ عزمُ الحيـاةِ ؟ لَا شيءَ إلَّا
الموتُ والصمتُ والأسى والظلامُ
عمــرٌ ميـتٌ ، وقلـبٌ خَـــواءٌ
ودمٌ ، لا تُـثـيـــرُهُ الآلامُ
وحيـاةٌ تنـامُ في ظُلْمـةِ الوادِي
وَتَـنْـمُـو مِـنْ فَوقِهَـا الأوهَـامُ
أيُّ عيـشٍ هـذا ، وأيُّ حيـاةٍ ؟
(رُبَّ عيشٍ أخفُّ منْـهُ الحِمَـامُ) [٢]

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٤٢٦ .

[٢] عجز هذا البيت للمتنبي ، صدره : ذل من يغبط الذليل يعيش .

ولكننا نجد الشابي بين الحين والآخر يذكر الشعب بأنَّه صاحب الموقف ، ويجعل الدور الأول في كل نهضة وحركة للشعب ، فهو يحترم الشعب ويثق بقدراته إذا اتخذ الطريق الصحيح وسار على النهج القويم ، فيقول في قصيدته **"إلى الطاغية"** :[١]

وفي صيحة الشعب المسخر زعزع
تخـر لهـا شـم العـروش وتهـدم
أغـرك أن الشعب مغـض على قذى
وأن الفضاء الرحب وسنان مظلم

وتنطلق وطنية هاتفة متمردة طليقة مؤمنة بالحياة والطوح كارهة للحياة بين الحفر ومتطلعة إلى السمو مترفعة عن الجمود والركود الذي لا يليق بأبناء الحياة المؤمنين بغدهم.

---

[١] ديوان ٧٢ ص ١١٨ .

ففي قصيدته **"إرادة الحياة"** إيمان عميق بالطموح وكان يبحث في شعبه عن صورة المتطلع إلى ما وراء الوجود .

هذه القصيدة الخالدة التي تعلن للناس أن الطموح حبيب الحياة وروح الظفر كانت تغذيها مشاعر فياضة وأحاسيس شفافة تتدفق صدقا ورومانسية خلقتها ظروف شخصية وبيئية .

وينقل الشابي إلى الشعب حقيقة يدرك من خلالها أنه – أي هذا الشعب – لن يخرج من حالة الموت إلى عنفوان الحياة إلا إذا نشط فيه دافع الحياة ، إلا إذا "أراد" حقا أن يكون شعبا حيا .

وهذه الإرادة لا تتحقق بطريقة عفوية بل هي رهْنٌ بمدى حرارة "الأشواق" التي يستشعرها الإنسان إزاء الحياة . فإذا اشتعلت في نفسه هذه الأشواق تولدت الإرادة ، وتغلب فيه دافع الحياة على دافع الموت ، وعند ذلك يصبح الطموح دليل الإنسان إلى المغامرة . فإذا خمدت أشواق الحياة في نفس الإنسان فقد

الطّموح وكفّ عن المغامرة ، وصار حياً كأنَّه ميت . وفي هذا يقول الشابي أبياته المشهورة من قصيدته "إرادة الحياة" : [١]

إذا الشَّعْبُ يَومـاً أرادَ الحَيـاة
فـلابُـدَّ أَنْ يَسْتجـيبَ القَـدَرْ
وَلاَبُـدَّ للَّيـلِ أنْ يَنْـجَـلـي
ولابـدَّ للقيـدِ أَنْ يَنْكَـسِـرْ
ومَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَـوْقَ الحَيـاةِ
تبـخَّـر فـي جَـوِّهَـا وِانْدَثَـرْ
فويلٌ لمـنْ لَـمْ تَشُقْهُ الحَيَـا
ةُ مِـنْ صَفْعَـةِ العَـدَمِ المُنْتَصِـرْ

[١] ديوان ٧٢ ص ٤٠٦ ، وقد نظمها عام ١٩٣٣ ف ، أي قبل وفاته بعام واحد تقريبا .

ثم يعود في نفس القصيدة لكي يؤكد هذه المعاني حين يقول على لسان الأرض :

أُبارِكُ في النَّاسِ أهْلَ الطُّمُـوحِ
وَمَنْ يَسْتَلِذُّ رُكُوبَ الخَـطَـرْ
وألعـنُ مَنْ لا يُماشي الزَّمَـــانَ
ويقنعُ بالعيشِ عيشِ الحَجَـرْ
هُو الكــونُ حيٌّ يُحِبُّ الحَيَـــاة
ويحتقـرُ المَيْتَ مَهْمَا كَـبُـــر
فلا الأفْقُ يحضنُ مَيْتَ الطّيورِ
ولا النَّحْلُ يلثمُ مَيْتَ الزَّهَــر
ولـولا أمــومة قـلـبي الــرَّؤومُ
لَمَا ضَمَّت المَيْتَ تِلْكَ الحُفَر

فلم يكن الشابي من رجال السياسة أو الإدارة فيسعى لقلب النظام ولا كان قائدا عسكريا فيشنها ثورة دامية يزحزح بها تلك

الهياكل المتجبرة عن عروشها ليفسح للشعب طريق التحرر والحياة حياة إنسانية كاملة ، ولكنه كان شاعرا فأخذ يستغل مفعول الشعر في تنبيه قومه والإهابة بهم لكي يخلعوا عنهم تلك الثياب القذرة من الغفلة والاستسلام .

وكانت هذه خطوة من خطوات الإصلاح ، إذ خرج الشابي بالشعر عما ألفه ذلك العصر من أغراض ، فسخّره في مساندة الدعوة الإصلاحية وجعله بوقاً من أبواق النهضة والإيقاظ .

ويتضح لنا من مجموع الديوان أنَّ هنالك نحو سبعة عشر موضعاً ، ذكر الشابي فيها الشعب : ثلاثة مواضع ورد فيها ذكر الشعب على سبيل الإشارة العارضة التي لا توجب حكماً ، كقوله في قصيدته **"نظرة في الحياة"** : [١]

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٧٨ .

وللشعـوب حَيَـاةُ حيناً وحينـاً فنــاءْ
واليأسُ موتٌ ولكنْ موتٌ يُثيرُ الشَّقَاءْ
والجِدُّ للشعبِ روحٌ تُوحي إليهِ الهَنَـاءْ
فإنْ تولَّتْ تَصــدَّتْ حَياتُـهُ للبَــلاءْ

وأما المواضع الباقية ففيها كلها حملة شديدة على الشعب لاستنهاضه ، فالشابي يعيش مع الناس بغير رضاه غريباً وحيداً في عالمٍ من الغربة والاغتراب، من أجل ذلك تراه يريد أن يعيش بعيداً عن الناس كلهم حتى عن أمته وأهل بلاده .

يقول في قصيدته **"السآمة"** : [١]

فأينَ الأمـاني وألحانُهـــا ؟
وأينَ الكُؤوسُ وأينَ الشرابْ ؟

---

[١] ديوان ٧٢ ص ١٢٢ .

لقدْ سحقتهَـــا أكفُّ الظَّـلامِ
وقَدْ رشفتهَـا شِفَـاهُ السَّـــرَابْ
فمـا العيشُ في حومةٍ بأسُهَا
شديـــــدٌ وصدَّاحُهَـــا لا يُجَـابْ
كئيـبٌ وحيـــــدٌ بآلامِـــــهِ
وأحلامِهِ ، شُـــدوه الإنْتِحَـــابْ
ذوتْ في الرَّبيعِ أَزَاهِيرُهَـــــا
فَنَمْـنَ ، وَقَدْ مَصَّهُـنَّ التُّـــرَابْ